زيد بن الخطاب

صقر يوم اليمامة

جلس النبى صلى الله عليه وسلم يومًا، وحوله جماعة من المسلمين وبينما الحديث يجرى، أطرق الرسول لحظات، ثم وجه الحديث لمن حوله قائلا:

«إن فيكم لرَجُلا ضِرْسه فى النار أعظم من جبل أُحُد»..

وظل الخوف، بل الرعب من الفتنة فى الدين، يراود ويُلحُّ على جميع الذين شهدوا هذا المجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.. كل منهم يحاذر ويخشى أن يكون هو الذى يتربص به سوء المنقَلَب وسوء الختام..

ولكن جميع الذين وُجِّهَ إليهم الحديث يومئذ ختم لهم بخير، وقضَوْا نَحْبهم شهداء، فى سبيل الله، وما بقى منهم حيًّا سوى أبى هريرة والرَّجَّال بن عُنفوة.

ولقد ظل أبو هريرة ترتعد فرائصه خوفًا من أن تصيبه تلك النبوءة. ولم يرقَأ له جفن، وما هدأ له بال حتى دفع القدَرُ الستار عن صاحب الحظ التعس. فارتدَّ الرجَّال عن الإسلام ولحق بمُسيْلمةَ الكذاب، وشهد له بالنبُّوة.

هنالك استبان الذى تنبأ له الرسول صلى الله عليه وسلم بسوء المنقلب وسوء المصير..

والرَّجَّال بن عنفوة.. هذا، ذهب ذات يوم إلى الرسول مُبايعًا ومُسْلمًا، ولما تَلقَّى منه الإسلام عاد إلى قومه.. ولم يرجع إلى المدينة إلا إثر وفاة الرسول واختيار الصديق خليفة على المسلمين.. ونقل إلى أبى بكر أخبار أهل اليمامة والتفافهم حول مسيلمة، واقترح على الصدِّيق أن يكون مبعوثه إليهم يُثبتهم على الإسلام، فأذن له الخليفة..

وتوجّه الرَّجَّال إلى أهل اليمامة.. ولما رأى كثرتهم الهائلة ظنّ أنهم الغالبون، فحدثته نفسه الغادرة أن يحتجز له من اليوم مكانًا فى دولة «الكذَّاب» التى ظنَّها مقبلة وآتية، فترك الإسلام، وانضمَّ

لصفوف «مسيلمة» الذى سخا عليه بالوعود.

وكان خطر الرَّجَّال على الإسلام أشدَّ من خطر مسيلمة ذاته.

ذلك، لأنه استغل إسلامه السابق، والفترة التى عاشها بالمدينة أيام الرسول، وحفظه لآيات كثيرة من القرآن، وسفارته لأبى بكر خليفة المسلمين.. استغل ذلك كله استغلال خبيثًا فى دعم سلطان «مسيلمة» وتوكيد نُبُوّته الكاذبة.

لقد سار بين الناس يقول لهم: إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنه أشْرك مسيلمة بن حبيب فى الأمر».. وما دام الرسول صلى الله عليه وسلم قد مات، فأحقّ الناس بحمل راية النبوة والوحى بعده، هو مسيلمة..!!

ولقد زادت أعداد الملتفين حول «مسيلمة» زيادة طافحة بسبب أكاذيب «الرَّجال» هذا.. وبسبب استغلاله الماكر لعلاقاته السابقة بالإسلام وبالرسول.

وكانت أنباء «الرَّجال» تبلُغ المدينة، فيتحرَّق المسلمون غيظًا من هذا المرتدِّ الخَطر الذى يُضلُّ الناس ضلالاً بعيدًا، والذى يوسِّع بضلاله دائرة الحرب التى سيضطر المسلمون أن يخوضوها.

وكان أكثر المسلمين تغيُّظًا، وتحرُّقًا للقاء «الرَّجَّال» صحابى

جليل تتألَّق ذكراه فى كتب السيرة والتاريخ تحت هذا الاسم الحبيب «زيد بن الخطاب».. !!

زيد بن الخطاب..؟؟

لابد أنكم قد عرفتموه..

إنه أخو عمر بن الخطاب..

أجل.. أخوه الأكبر.. والأسْبق..

جاء الحياة قبل عمر، فكان أكبر منه سِنًّا..

وسبقه إلى الإسلام.. كما سبقه إلى الشهادة فى سبيل الله..

* * *

وكان «زيد» بطلًا باهر البطولة.. وكان العمل الصامت. الممعن فى الصمت جوهر بطولته.

وكان إيمانه بالله وبرسوله وبدينه إيمانًا وثيقًا، ولم يتخلَّف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشهد ولا فى غَزاة.

وفى كل مشهد لم يكن يبحث عن النصر، بقدر ما يبحث عن الشهادة.. !

ويومَ أُحُد، حين حَمِىَ القتال بين المشركين والمؤمنين. راح زيد

ابن الخطاب يضرب، ويضرب.

وأبصره أخوه عمر بن الخطاب، وقد سقط درعه عنه، وأصبح أدنى مَنالا للأعداء، فصاح به عمر.

«خُذ دِرْعى يا زيد، فقاتل بها»..

فأجابه زيد:

«إنى أريد من الشهادة ما تُريده يا عمر»..!!!

،وظل يقاتل بغير درع فى فدائية باهرة، واستبسال عظيم.

* * *

قلنا: إنه رضى الله عنه، كان يتحرّق شوقًا للقاء «الرَّجَّال» متمنيًا أن يكون الإجهاز على حياته الخبيثة من حظه وحده.. فالرَّجَّال فى رأى «زيد» لم يكن مرتدا فحسب.. بل كان كذَّابًا، منافقًا، وصوليًّا.

لم يرتدَّ عن اقتناع.. بل عن وُصولية حقيرة، ونفاق بغيض هزيل.

وزيد فى بغضه النفاق والكذب، كأخيه عمر تمامًا..!

كلاهما، لا يثير اشمئزازه، ولا يستجيش بَغضاءه، مثل النفاق

الذى تُزجيه النفعية الهابطة، والأغراض الدنيئة.

ومن أجل تلك الأغراض المنحطَّة، لعب «الرَّجال» دوره الآثم، فأرْبى عدد الملتفين حول «مسيلمة» إرباءً فاحشًا، وهو بهذا يُقدِّم بيديه إلى الموت والهلاك أعدادًا كثيرة ستلاقى حتفها فى معارك الردة.. أضلَّها أولا، وأهلكها أخيرًا.. وفى سبيل ماذا..؟ فى سبيل أطماع لئيمة زيّنتها له نفسه، وزخْرفَها له هواه، ولقد أعدَّ زيد نفسه ليختم حياته المؤمنة بمحق هذه الفتنة، لا فى شخص «مسيلمة» بل فى شخص من هو أكبر منه خطرًا، وأشدُّ جُرمًا – الرَّجَّال بن عُنفُوة.

* * *

وبدأ «يوم اليمامَة» مُكفَهرًّا شاحِبًا.

وجمع «خالد بن الوليد» جيش الإسلام، ووزَّعه على مواقعه ودفع لواء الجيش إلى مَن..؟؟

إلى زيد بن الخطاب..

وقاتل «بنو حنيفة» أتباع مسيلمة قتالاً مُستميتًا ضاريًا..

ومالَت المعركة فى بدايتها على المسلمين، وسقط منهم شهداء كثيرون.

ورأى زيد مشاعر الفَزع تُراوِدُ بعض أفئدة المسلمين، فعلا رَبْوَةً هناك، وصاح فى إخوانه:

«أيها الناس.. عَضُّوا على أضراسكم، واضربوا فى عدوكم، وامْضُوا قُدُمًا.. والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله، أو ألقاه سبحانه فأكلمه بحُجَّتى»...!!

ونزل من فوق الربوة، عاضًّا على أضراسه، زامًّا شفتيه لا يُحرِّك لسانه بهمس.

وتركَّز مصير المعركة لديه فى مصير «الرَّجَّال»؛ فراح يخترق الخِضَمَّ المقتتل كالسهم، باحثًا عن الرَّجَّال حتى أبصره..

وهناك راح يأتيه من يمين، ومن شمال!! وكلما ابتلع طوفان المعركة غريمه وأخفاه، غاص زيد وراءه حتى يدفعه الموج إلى السطح من جديد، فيقترب منه «زيد» ويبسط إليه سيفه، ولكن الموج البشَرِى المحتدم يبتلع «الرَّجَّال» مرة أخرى، فيتبعه «زيد» ويغوص وراءه كى لا يفلت..

وأخيرًا يمسك بخناقه ويطوح بسيفه رأسه المملوء غرورًا، وكذبًا، وخِسَّة...

وبسقوط الأكذوبة، أخذ عالَمها كله يتساقط، فدب الرعب فى

نفس «مُسيلمة» وفى رُوع «المحكم بن الطفيل» ثم فى جيش مسيلمة الذى طار مقتل «الرَّجَّال» فيه كالنار فى يوم عاصف..

لقد كان «مسيلمة» يعدهم بالنصر المحتوم، وبأنه هو والرَّجَّال ابن عُنفُوة، والمحكم بن الطفيل سيقومون غَداةَ النصر بنشر دينهم وبناء دولتهم..!!

وها هو ذا الرَّجَّال قد سقط صريعًا.. إذن فنُبوّة مسيلمة كلها كاذبة.. وغدًا سيسقط المحكم، وبعد غد مسيلمة..!!

هكذا أحدثت ضربة «زيد بن الخطاب» كل هذا الدَّمار فى صفوف مسيلمة..

أما المسلمون، فما كاد الخبر يذيع بينهم حتى تشامخت عزماتهم كالجبال، ونهض جريحهم من جديد، حاملا سيفه، غير عابئ بجراحه..

حتى الذين كانوا على شفا الموت، لا يصلهم بالحياة سوى بقية وهنانة من رَمَقٍ غارب، مسَّ النبأ أسماعهم كالحلم الجميل، فودُّوا لو أن بهم قُوَّةً يعودون بها إلى الحياة ليقاتلوا، وليشهدوا النصر فى روعة ختامه..

ولكن أنَّى لهم هذا، وقد تفتَّحت أبواب الجنة لاستقبالهم وإنهم الآن لَيسمعون أسماءهم، وهم يُنادَوْن للمثول...؟؟!!

* * *

رفع «زيد بن الخطاب» ذراعيه إلى السماء مبتهلا لربه، شاكرًا نعمته...

ثم عاد إلى سيفه، وإلى صمته، فلقد أقسم بالله من لحظات ألا يتكلم حتى يتم النصر أو ينال الشهادة..

ولقد أخذت المعركة تمضى لصالح المسلمين.. وراح نصرهم المحتوم يقترب ويُسرع..

هنالك وقد رأى «زيد» رياحِ النصر مقبلة، لم يعرف لحياته ختامًا أروع من هذا الختام؛ فتمنى لو يرزقه الله الشهادة فى يوم اليَمامَة هذا..

وهبَّتْ رياح الجنَّة فملأت نفسه شوقًا، ومآقِيَه دموعًا، وعزمه إصرارًا..

وراح يضرب ضَرْب الباحث عن مصيره العظيم..

وسقط البطل شهيدًا..

بل قولوا: صَعَد شهيدًا..

صعد عظيمًا، مُمَجَّدًا، سعيدًا..

وعاد جيش الإسلام إلى المدينة ظافرًا..

وبينما كان عمر، يستقبل مع الخليفة أبى بكر، أولئك العائدين الظافرين، راح يرمُق بعينين مشتاقتين أخاه العائد..

وكان زيد طويلا بائن الطول، ومن ثَمّ كان تعرّف العين عليه أمرًا ميسورًا..

ولكن قبل أن يُجهد عمر بصَره، اقترب إليه من المسلمين العائدين مَن عزَّاه فى زيد.

وقال عمر:

«رَحِمَ الله زيدًا..

«سَبقنى إلى الحُسْنَيَيْن..

«أسلم قبلى..

«واستشهد قبلى»..

* * *

وعلى كثرة الانتصارات التى راح الإسلام يظفر بها وينعم، فإن

زيدًا لم يغب عن خاطر أخيه الفاروق لحظة..

ودائمًا كان يقول:

«ما هَبَّت الصَّبا، إلا وجدتُ منها ريح زيد»..

أجَلْ..

إن الصَّبَا لَتحمل ريح زيد، وعَبير شمائله المتفوقة..

ولكن، إذا أذِن أمير المؤمنين، أضفتُ لعبارته الجليلة هذه، كلمات تكتمل معها جوانب الإطار..

تلك هى:

.. وما هبَّت رياح النصر على الإسلام منذ يوم اليمامة إلا وجدَ الإسلام فيها ريح زيد.. وبلاء زيد.. وبطولة زيد.. وعظمة زيد..!!!

بُورِكَ آل الخطاب تحت راية الرسول صلى الله عليه وسلم..

بوركوا يوم أسلموا.. وبوركوا أيام جاهدوا، واستشهدوا... وبُوركوا يوم يُبعثون..!!